لا فارق كبير بين الاغنيتين ، غير الفارق بين الحنين القادم من بعيد والحنين الطالع من قريب . كلتا الاغنيتين تعلن الحب للارض ذاتها . وكلتاهما تحدد مفهوم الوطن بالانتماء الى الاجداد . الاولى — لشاعر يهودي يعيش في روسيا . ما رأى فلسطين وما شمها . والثانية — لشاعر عربي يعيش في فلسطين ما رأى المنفى وما سمع به . بعد قليل ، تغلبت الاغنية الاولى على الثانية ، وصار الشاعر الثاني يغني الحنين البعيد . وصار الفتيان العرب الباقون في بلادهم محرومين من التغني بقصيدة شاعرهم . وصار طريقهم الى المستقبل مرهونا باتقان اغاني الشاعر اليهودي الذي كان يقيم في روسيا . والمعلم العربي الذي يجرؤ على تلقين أغنية حب الوطن مطرود من العمل بتهمة التحريض على دولة اسرائيل وبتهمة اللاسامية . ثم كبرنا قليلا ، فعلمونا ملاحم ذلك الشاعر الصعبة ، ولم نأخذ من المتنبي الا « فيك الخصام وأنت الخصم والحكم » .

هم الخصوم والحكام ..

وهم الذين يحددون لنا « ما هو الوطن » ؟

نخرج مع موسى من مصر هاربا من الاضطهاد . تضرب البحر بعصا . ينشق البحر . يمر بنو اسرائيل ، ثم يلتهم البحر أعداءهم . تبقى في صحراء سيناء اربعين عاما . تتصالح مع الرب . وتعود ..

هم الخصوم والحكام .

وهم الذين يحددون لنا « ما هو الوطن » .

جلس تيودور هرتسل وفكر بمصير شعبه المضطهد . ألف الفكرة الصهيونية التي هي الطريق الوحيد الى أرض الخلاص الوحيد .. لن يحقق اليهود ذواتهم ولن يقدروا على القيام بتنفيذ الرسالة التاريخية للبعث اليهودي الا بالعودة الى وطن الاجداد .. الى فلسطين .

وحين تسأل المدرس عن مصير الشعب العربي الفلسطيني وعن وطنه ، يهمس في أذنك أن تكف عن المخاطرة وعن التطاول على قدسية التاريخ . ولكن ، حين يكون المدرس يهوديا يترجم لك ما قاله حاييم وايزمن في مجلس السلام في باريس عام ١٩١٩ : « ان أرض اسرائيل يجب أن تكون يهودية كما أن انجلترا انجليزية » . وحين تلح عليه بالسؤال عن مصير العرب الفلسطينيين يطمئنك الى ان وايزمن قد أضاف : « ان الصهيونيين لن يدخلوا أرض اسرائيل كالغزاة . لن يطردوا أحدا » .

لن يطردوا أحدا ...

[٢]

لا تسأل أستاذ التاريخ . لقمة عيشه يأخذها من الاكاذيب . وكلما ابتعد التاريخ ، عادة ، كلما اقتربت الكذبة من البراءة ، وقل أذاها . واستاذ التاريخ هذا يعرفك جيدا . على بعد خمس دقائق من المدرسة يخرج شارع من عكا الى الشرق في اتجاه صفد . وفور خروجك من عكا تبدأ غابة زيتون صغيرة تحيط برابية مطلة على سهل منبسط أخضر . على هذه الرابية ، ولدت قبل قليل . ما زالت طفولتك قريبة من كل شيء .. من الرابية ومن السهل ومن الشارع الاسود ومن طلقات الرصاص الاولى . ليس صحيحا ان الاطفال ، دائما ، يخافون القمر . لولا القمر ، ليلتها ، لفقدوك الى الابد ، واستبدلوك بشيء اخر ، كما فعلت أم من حيفا ليلة غاب القمر . هجم الرصاص والرعب على منزلها فتناولت شيئا حسبته طفلها وقفزت الى أقرب زورق . في البحر الذاهب الى عكا اكتشفت أن الطفل وسادة . ومن يومها ، أصيبت بالجنون . كم طفل تحول الى وسادة . وكم